

أركان ومشروعة النقدي

د. عماد الدين إبراهيم عبد الرازق¹

مقدمة

منذ العقود الأخيرة من القرن، بدأت المشاريع الفكرية تتصدر حقل البحث الفلسفي العربي، فلم يعد أقطاب الفكر الفلسفي العربي المعاصر يهتمون بمذاهب فلسفية بعينها، أو تيارات تابعة للفكر الغربي، من قبيل الوضعية المنطقية، الشخصية، وإنما أصبحوا يقدمون أنفسهم على أنهم أصحاب مشاريع فكرية فلسفية وسياسية وحضارية، ولعل من أهم هذه المشاريع الفكرية والفلسفية، مشاريع العقلانية النقدية، أو مشاريع نقد العقل الإسلامي ونقد العقل العربي، وتتفق هذه المشاريع جميعها في كونها تركز على نقد أسس العقل المنتج للفكر والثقافة والحداثة، أي أنها بمعنى آخر مشاريع أبستمولوجية، هدفها الكشف عن الشروط والإمكانات التاريخية والمنطقية واللغوية التي تحكم المعرفة.

والعقلانية النقدية تقرن النهوض الحضاري بضرورة نقد العقل أي تفكيك بنيته، وتحليل مسلماته وفي هذا السياق يندرج مشروع "محمد أركون"، فهو صاحب مشروع نقدي شامل، يدرس شروط صلاحية كل المعارف التي أنتجها العقل الإسلامي، وصفات "أركون" في مشروعه النقدي يبدو أنه مطلعاً على الفكر النقدي الغربي ومتحكماً في مفاهيمه ومصطلحاته ومتابعاً لتياراته، وفي الوقت نفسه يعمل على إيجاد المناهج السلمية لتطبيقها في الدراسات الإسلامية ومقاربة العقل الإسلامي، أي أنه يصل الفكر الإسلامي بالطفرات المعرفية والنقدية الغربية، ويدعو إلى التحرير الفكري، من خلال طرح مشكلة المقدس بشكل تاريخي واثربولوجي مقارنة.

¹ بني سويف - مصر

أما عن سياق مشروعه فهو يندرج في مجال العقلانية النقدية والتي تهتم بالقراءة النقدية الحداثية للنص القرآني وللتراث الإسلامي ككل. وقد بدأ مشروع أركون النقدي يتبلور في نهاية العقد السادس من القرن الماضي عندما صدر كتابه "محاولات في الفكر الإسلامي" عام 1973 واشتمل على عدة دراسات حول الفكر الإسلامي الكلاسيكي ثم كتاب "قراءات في القرآن" عام 1982، واتضحت المشروع وملاحه عندما أصدر كتاب "نقد العقل الإسلامي"، ويتلخص مشروع "أركون" النقدي في الكشف التاريخي عن النظام الفكري العميق الذي يحكم التصورات الإسلامية.

ويستمر في إنتاجها، ويعتمد مشروعه على تطبيق الأدوات والمفاهيم النقدية الغربية المعاصرة على الدين والتراث الإسلامي، والغاية التي يهدف إليها مشروعه هي إعادة صياغة التراث الإسلامي بصورة تسمح باندماج المسلم المعاصر في فضاءات الحداثة الغربية، ويعتبر "أركون" أحد أبرز وجوه الفكر الإسلامي المعاصر، الذي تصدى ضمن مشروعه الفكري الكبير بالبحث والتنقيب في ظاهرة كثيراً ما اعتبرت من الظواهر الغير مفكر فيها وهي الظاهرة الإسلامية، كما أن مشروعه يمثل اختبار نقدي للفكر في فهم جدلية الواقع الإسلامي في أبعاده المختلفة، الفلسفية والانثروبولوجية والسيولوجية، أي منهج النقد والتمحيص المستند إلى علوم الإنسان والمجتمع والتي أطلق عليها أركون مشروعه العلمي "بالإسلاميات التطبيقية".

وسوف نحاول في ورقتنا البحثية أن نوضح ملامح وسمات مشروع أركون النقدي، وتحديد ما هو العقل الإسلامي، كما سوف نوضح منطلقات مشروع أركون النقدي والذي يتركز حول مفهوم "الإسلاميات التطبيقية" وقراءته للنص القرآني، وحديثه عن الخيال الديني، ثم تحليله لظاهرة العلمنة، وإلقاء الضوء على تحليله لظاهرة الأصولية الإسلامية.

أولاً: ملامح وسمات مشروعه النقدي:-

في البداية يجب أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن المنهج في مشروع أركون النقدي شكل حلقة هامة ومركزية في هذا المشروع، بحيث يصعب فصل المنهج عن الأهداف التي أراد الوصول إليها، ولقد أفاد " أركون " من وجوده في الغرب، وإطلاعه على التطور الذي توصلت إليه المناهج العلمية في دراسة التاريخ المتعدد الجوانب، وهي مناهج لم يسبق أن تعرف إليها العقل العربي قبل أركون، ويشير أركون في كتابه " نزعة الأنسنة في الفكر العربي "بقوله ينبغي على المنهج أن يدرس الظواهر من خلال التدخل والتفاعل المستمر بين نسق الروح ونسق الأشياء المادية الواقعية، فالتأملات الأكثر تجريدًا والأكثر مجانية من حيث الظاهر، لها دائماً علاقة مع بواعث فردية⁽²⁾.

وينطلق "أركون" في أطروحته النقدية للفكر العربي الإسلامي، من مفاهيم رئيسية ثلاث، تصدرت تقريباً كل دراساته وإن كان ذلك بأشكال مختلفة وهي: الدين، الدولة، الدنيا، ولقد عمد في المجال الإسلامي على تحديد الظاهرة الدينية وبلورتها مفهوماً وصولاً إلى اشكاليته، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أنها تحتاج أكثر من غيرها إلى شرح وتفسير داخل الفضاء الإسلامي انطلاقاً من الخطاب القرآني⁽³⁾.

ويحاول "أركون" في مشروعه النقدي أن يحيلنا إلى إشكالية أبستمولوجية كبيرة تحتل مكانة في الفضاء المعرفي المعاصر وهي مدى عمق المسافة والأبستمولوجية التي تفصل بين الفضاء العربي الإسلامي والفضاء الأوروبي - العلماني.

إن المشروع النقدي الذي تزعمه أركونه لاستكشاف بنية العقل الإسلامي، لا ينحاز لمذهب ضد المذاهب الأخرى، ولا يقف مع عقيدة ضد العقائد التي

(2) محمد أركون: نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيد، ترجمة، هاشم صالح، دار الساق، بيروت، ط 1، 1997، ص 260.

(3) أركون: تحرير الوعي الإسلامي "نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة"، ترجمة. هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2011، ص 71.

ظهرت، إنه مشروع تاريخي، أنثروبولوجي في أن معاً. كما أن مشروع نقد العقل الإسلامي لا يكتفي بالبحث عما يخص الإسلام كدين وفكر وثقافة ومدنية، إن هذا المشروع النقدي عنده لم يكتف بالإسلام كمدونة دينية، بل تعداه إلى العقل اللاهوتي عند أهل الكتاب والبحث في الجذر المشترك بين هذه الكتب⁽⁴⁾.

ويحدد أركون ويجدد حرصه على علمنة الإسلام عبر مسعين إثنين:-

- 1- يتمثل الأول في فصل الإسلام عن الحياة الاجتماعية.
- 2- بينما يتمحور الثاني حول نقد التراث، والذي يعنى به القرآن والسنة بالدرجة الأولى وفق آليات جديدة، هي ما انتهى إليه العقل الغربي من أدوات، كاللسانيات والعلوم النفسية والاجتماعية والانثروبولوجية، قراءة النصوص الدينية على هديها باعتبارها وحدها هي القادرة على تجاوز الشحنة العاطفية من جهة والمقدس من جهة ثانية لتتناول الموروث الديني بغير خلفيات مهما كانت، وهذا يتيح إعادة تشكيل العقل المسلم بعيداً عن الأيديولوجية، لينسجم مع العصر الحديث والاتجاه الإنساني، وهذا امتداد لمشروع "أركون" لعلمنة الإسلام وأنسنته من خلال التعامل مع ثوابته تعاملًا بشرياً عادياً عقلياً بحثاً يجردها من ثباتها وقديستها ليغدو الدين فكراً بشرياً⁽⁵⁾.

وهدف مشروع أركون النقدي كما يزعم تجديد الفكر الإسلامي عبر إحداث ثورة داخلية عارمة، لا تدع مجالاً معرفياً إلا سلكته، ليتمكن المسلمون الالتحاق بركب الحضارة، والحقيقة التي ينتهي إليها تلخص مشروعه في إفراغ الإسلام من محتواه الديني تماماً وإنزاله إلى الساحة الفكرية البشرية، ليتسنى ذوبانه في المنظومة الغربية، التي لا يرى أركون الصواب والحقيقة والخلاص إلا عبرها⁽⁶⁾.

(4) محمد أركون: نحو نقد العقل الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2009، ص56.

(5) أركون: الفكر العربي، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات - بيروت - باريس - ط، 1985، ص117.

(6) أركون: الفكر العربي، ص119.

كذلك من أهداف مشروعه النقدي هو تأسيس أو بناء نظرية جديدة في التعامل مع التراث تقوم على نقد بنيته التكوينية وآلياته المعيارية، ثم ضرب مقوماته الأصلية عن طريق إخضاعه للنموذجية الغربية في التفكير، كما يهدف أيضاً إلى إعادة كتابة جديدة لكل تاريخ الفكر الإسلامي والفكر العربي⁽⁷⁾.

والمقصد الأساسي لهذه العملية هو تتبع المساحات الخفية التي ظلت بعيدة عن مجال النقد والتفكير لذا يقول " ينبغي للتراث الكلي أن يتعرض لتفحص أركيولوجي صبور وعميق من أجل العثور على أجزائه المجهضة والمستبعدة والمحترقة، وإعادة كتابة تاريخها أو تركيبها إذا أمكن وليس فقط من أجل التركيز على صيغته الثابتة واتجاهاته الراسخة المرتبطة إلى حد كبير بالدولة الرسمية والدين الرسمي، أنه يعمل على خرق "الممنوعات وانتهاك المحرمات" التي أقصت كل الأسئلة التي كانت قد طرحت في المرحلة الأولية والبداية للإسلام، ثم سكرت وأغلقت عليها⁽⁸⁾.

وأيضاً كان الهدف عند أركون في مشروعه النقدي هو بناء إسلاميات تطبيقية وذلك بمحاولة تطبيق المنهجيات العلمية على القرآن الكريم، ومن ضمنها تلك طبقت على النصوص المسيحية، وهي التي أخضعت النص الديني لمحك النقد التاريخي المقارن والتحليل الالسنى التفكيكي وللتأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى، ولقد طرح أركون هذا المشروع في الدراسات الإسلامية لكي يهتم به الباحثون العرب والمسلمون عموماً، لا سيما وهو مشروع متصل بالبحوث في النص الديني بصفة عامة، أنه مشروع مبنى بالأساس على التعرف على الظاهرة الدينية حتى تحل الظاهرة الدينية في أفق أوسع من الأفق الإسلامي، ومشروع أركون يفتح باباً أوسع لتاريخ الأديان إذا إنطلقنا من القرآن ومن منطقته الذي يطرح قضية تاريخ

(7) أركون: الإسلام: الأخلاق والسياسة، ص 174.

(8) أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية: ترجمة. هاشم صالح، مركز الانتماء القومي، ط 2، 1996، ص 31.

النجاه، أي كيف نعيش حياتنا كمؤمنين متلقين كلام الله حتى نطبقه على حياتنا⁽⁹⁾.

وتتميز القراءة الأركونية في الدراسات الإسلامية بسمات عدة منها:-
أولاً:- انطلاقها من مكتسبات الحداثة الغربية، وثانياً تقوية الوظيفة النقدية للعلوم الاجتماعية من خلال تطبيقها على التراث الإسلامي، وهذه القراءة تختلف عن القراءات السائدة في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً لأنها تتسلح بالنقد، وتنقب في طبقات التراث لاستخراج مكنونه، ولا مفكره، كما إنها تتوجه إلى الإسلاميات الكلاسيكية لنقدها وإبراز محدوديتها. ومن خلال هذا المشروع النقدي للعقل الإسلامي يطرح أركون سؤالاً هو لماذا تأخر المسلمون وتقدم الكفار؟ ويلوم أركون المسلمون على البحث عن الإجابات لأسئلتهم في التراث، بينما يرى هو الحل " خارج دائرة المقدس"، بل على حساب المقدس وأصوله ونصوصه وتطبيقاته، لأن محور الحياة بداية هو الإنسان وليس الله، وهذه الأنسنة تحتل مكاناً محورياً في مشروعه العام، والمشتغل على قراءة النصوص الدينية قراءة حداثة بالمعيار الغربي المعاصر، لتخليص المسلمين وكل الناس من إصرار المعتقدات الغيبية، والمقاربات الدوغمائية، ليستوي الجميع في حياة لا سلطان عليها إلا العقل، والعقل الغربي بالذات.

ودأب أركون في مشروعه النقدي على التبرم من أي إشادة بالإسلام ونبه وبرموزه، لأن العقلانية التي يؤلفها تقتضي نزع القداسة ومعاني التأثير الوجداني، لذلك يسخر من العاطفة التي اضطر أقطاب الحداثة الغربية إلى أخذها بالاعتبار⁽¹⁰⁾.

ويجب أن نشير إلى أن هناك منطلقات رئيسية في مشروع أركون النقدي منها:-

(9) إدريس ولد قابلة: جولة في فكر أركون، دار ناشري، 2003، ص7.

(10) أركون: الفكر العربي، ص106-107.

1- تحديد مفهوم العقل الإسلامي:-

لا يقصد أركون بالعقل الإسلامي استخدامه السائد عند الفلاسفة المسلمين بل يقصد به القوة الفكرية المتطورة المتغيرة بتغير البيئات الثقافية والأيدولوجية، وهي خاضعة للتاريخية، كما يعنى المنهج، ثم أنه ليس جوهرًا ثابتًا، إن العقل الإسلامي لا ينفصل عن الوحي في الإسلام، بينما العقلانية في الفكر الحدائي تعنى عدم الخضوع لأية سلطة غير سلطة العقل، ويرى "أركون" أنه نجم عن غياب نقد العقل الإسلامي اتساع دائرة اللا مفكر فيه، وهو يبدأ من تفكيك العقل الإسلامي، أركون يريد تفكيكه والقطع مع الميتافيزيقا بالتموضع داخلها وتوجيه ضربات متتالية لها من الداخل.

ويمثل أركون العقل الإسلامي الكلاسيكي بالقرآن والسنة ورسالة الإمام الشافعي، وينتقد أركون الإسلاميات الكلاسيكية، لأنها تحصر اهتمامها في الإسلام، مثلما تمثل في كتابة الفقهاء، وإهمالهم ما تبقى ولقد ارتبط الإسلام السني ارتباطًا وثيقًا بالسلطات السياسية⁽¹¹⁾.

ثم يقدم أركون في كتابه "معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية" تحديدًا لما يعتبره العقل الديني إجمالًا والإسلامي تحديدًا، ويشير إلى أن العقل الديني يحصر تساؤلاته وتحرياته وإنجازاته داخل الحدود المنصوص عليها من قبل ما يدعوه بظاهرة الوحي المسجلة في الكتب المقدسة تورا، إنجيل، قرآن، ويرى أن مشروعه النقدي للعقل الإسلامي مشروعًا تاريخيًا واثروبولوجيًا في آن معًا، فهذا المشروع لا يكتفي بمعلومات التاريخ الراوي المشير إلى أسماء وحوادث وأفكار وآثار دون أن يتساءل عن تاريخ المفاهيم الأساسية المؤسسة كالدين والدولة والمجتمع، والمعرفة الأسطورية، والمعرفة العلمية⁽¹²⁾.

(11) أحمد بوعود: الظاهرة القرآنية عند أركون، سلسلة شرفات، 2013، ص 75.

(12) أركون: معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، ص 56.

ومشروعه النقدي للعقل الإسلامي قائم على النقد الشامل للنص الديني والتراث، والممارسة التي نتجت عنهما، في ضوء ما هو جاز اليوم من فكر وفتاوى باتت تخلع القدسية على كل شئ في حياة الإنسان المسلم العادي، وفي هذا المجال ينظر "أركون" إلى أن عملية نزع هذه القدسية عما هو غير مقدس يشكل أكبر عملية تجريد للعقل المسلم في زماننا المعاصر، وذلك من أجل أن يتمكن الإنسان من التصالح مع نفسه أولاً، وثانياً مع الزمن الذي يحيي ضمنه⁽¹³⁾.

ولقد توصل أركون عبر دراساته إلى تعيين الحلقة المركزية في راية لمشكلة المجتمعات العربية والإسلامية، فراها مجسمة في ضرورة نقد العقل الإسلامي، لأن العقل العربي نفسه لا يزال عقلاً دينياً، كما أن العقل الالهوتي الموروث منذ مئات السنين لا يزال يهيمن على الثقافة الإسلامية والعربية على السواء، ويزداد الأمر إلحاحاً من خلال ما تقدمه المجتمعات العربية والإسلامية من خلع القداسة على الممارسات، ويرى أن المهمة جسيمة لأن تطبيق المنهج التاريخي على التراث الإسلامي اعترضه في السابق عوامل موضوعية كانت تؤجل البحث فيه لصالح تغليب الصراع من أجل التحرر الوطني، وبعد حصول الاستقلال اتبعت الأنظمة سياسة تقوم على محاربة الفكر النقدي العقلاني، بل شجعت الفكر الأصولي المحافظ بحجة الدفاع عن الهوية والتراث، ويشير إلى جملة صعوبات تواجه قراءة الفكر الإسلامي فيقول إن الصعوبة الكبرى التي تواجهها تكمن في كيفية تحرير العقل النقدي من القيود الإبتسمية، والأبستمولوجية التي فرضها العقل الدوغمائي على جميع الممارسات الفكرية والثقافية التي قام بها الفكر البشري منذ انتقاله من المرحلة البدائية إلى المرحلة المدنية⁽¹⁴⁾.

⁽¹³⁾ أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ص 12.

⁽¹⁴⁾ أركون: قضايا في نقد العقل الديني (كيف نفهم الإسلام اليوم)، ترجمة وتعليق، هاشم صالح، دار الطبيعة، بيروت، 1998، ص 8-9.

وانطلاقاً من هذا التوجه، انخرط أركون في قراءة النص الديني والتراث الإسلامي معتمداً على منهجاً في القراءة يقوم على ربط الوثائق والنصوص بالمرحلة الزمنية التي كتب فيها وموصولة بتعيين طبيعة القوى الاجتماعية السائدة، والحركات الفكرية المتكونة في تلك الفترة مما عني لديه أن شرط " نقد العقل الإسلامي" يكون في استخدام هذه المنهجية التاريخية في التدقيق بكل المعطيات التاريخية، ومن هذا المنطلق ينكر أركون أن يكون العقل الإسلامي عقلاً أبدياً أو أزلياً، بل على العكس إن هذا العقل بنصوصه المؤسسة بتطور التشريعات والاجتهادات التي نجمت عنه، هو بالتأكيد عقل له بداية كما له نهاية، أي عقل يتشكل في التاريخ⁽¹⁵⁾.

ويركز أركون في نقده للعقل الإسلامي على قضية هامة وهي خلع القداسة والتعالي على القوانين البشرية السائدة في المجتمعات الإسلامية منذ التاريخ الأول للإسلام، وهو تقديس لا يزال له أجباً ضخمة من قبل الحركات الأصولية اليوم، ويشكل واحداً من العضلات الكبرى في تخليص العقل الإسلامي من آثاره السلبية، ويشير إلى هذه المسألة بقوله إن دراسة مفهومي خلع القداسة والتعالي على قانون ما، أو على مؤسسات الدولة والإدارة، أو على شخص الخليفة ووظيفته هي أساسية وحاسمة، وإذا ما أردنا أن نقوم بمقارنة صحيحة لمسألة الإسلام والعلمنة، فهم عندما يتحدثون عن الإسلام فهم يتحدثون فوراً عن مقدس وتعال موجودين في كل مكان، ولا يمكن مسهماً، وجامدين أبدياً، يقول نلحظ اليوم أن هذا المقدس نفسه أخذ ينحرف ويتبعثر ويتجسد في كل الأشياء وكل الأعمال التي تتوسط بين المؤمنين والمشارب الثقافية والدينية المتنوعة وبين العقل الإلهي⁽¹⁶⁾.

ويشكل نقد العقل الإسلامي عند أركون امتداداً معرفياً للعلمانية الغربية الليبرالية التي تنطلق من مفاهيم التحديث، كما أن أركون أخذ بشتى مناهج المدرسة

(15) أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ص 39-40.

(16) أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 64.

التفكيكية الغربية، ووظف له بعض العلوم الإنسانية مثل " الأنثروبولوجيا الدينية منها بخاصة" وعلم اجتماع المعرفة وعلوم النقد اللاهوتي، ويحاول أركون في مشروعه النقدي الدعوة إلى إسلام جديد بكل معاني الكلمة من معنى، بتفريغ المحتوى العقدي الإسلامي من مضامينه وأصوله المتعالية القائمة على الحق والتصرف الإلهي المستغرق لجمع مفردات الرسالة معنى ومقصداً، واستبدالها بإسلام دينوي يتقزم عند حدود الإنسان وفهمه⁽¹⁷⁾.

2- الإسلاميات التطبيقية :

هو مصطلح بديل لمصطلح "الإسلاميات التقليدية" حيث يدعى أركون أنه وجد نفسه مرغماً على الدخول في دراسة كبرى للعقل الإسلامي تمتد من لحظة المعاصرة إلى لحظة انبثاقه؟ فالإسلاميات التطبيقية تقوم بدراسة الفكر الإسلامي المعاصر لتمس المشكلات الحارقة للمجتمعات الإسلامية وحاجتها الراهنة، وتناقش مفاهيم الحداثة الغربية ذاتها لإغناء الإشكالية المتعلقة بالحداثة، فقد حاول أركون من خلال نقده للاستشراق ودعوته لمشروع الإسلاميات التطبيقية، فتح طرق جديدة في البحث أمام النتيجة المنطقية للإسلاميات التطبيقية وهي "نقد العقل الإسلامي" ويعود مصدر مصطلح الإسلاميات التطبيقية أن أركون استلهم هذه التسمية من كتاب "روجه باستيد" بعنوان "الأنثروبولوجيا التطبيقية" وهو يفهم منه أن علم الإسلاميات التطبيقية مرتبط بالأنثروبولوجيا. وتنطلق الإسلاميات التطبيقية في فكر أركون من واقع المسلمين وحاضرهم ومشكلاتهم ثم استنباط ما يتعلق بهم من تعليم ديني وأغراض ومصالح اقتصادية⁽¹⁸⁾.

ويتحدث أركون عن منهجيته "الإسلاميات التطبيقية" بقوله أن الإسلاميات التطبيقية هي ممارسة علمية متعددة الاختصاصات، وهذا ناتج عن اهتماماتها المعاصرة ومن وجهة نظر أبستمولوجية، فإن الإسلاميات التطبيقية تعلم بأنه ليس

⁽¹⁷⁾ أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 65.

⁽¹⁸⁾ أركون : الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: ص 195- 197 .

هناك من خطاب أو منهج يرى أنها في كل مساراتها تعددية المنهاج. إن الإسلاميات التطبيقية تسعى إلى نقد العقل الإسلامي باعتباره عقلاً دوغمائياً، وهذا العقل هو عقل الإنسان المسلم اليوم الذي ليزال منغلق داخل السياح الدوغمائي المنغلق⁽¹⁹⁾.

والإسلاميات التطبيقية تمثل كذلك مشروع فكري ذو طموح منهجي متعدد يقترحه أركون لإعادة قراءة التراث الإسلامي قراءة عملية بما فيها القرآن والحديث والسيرة النبوية والنصوص المفسرة الكبرى، وتهدف الإسلاميات التطبيقية فيما تهدف إليه إلى إعادة ربط الظاهرة الدينية بمسارها التاريخي داخل المجتمعات الإسلامية لإضفاء الحيوية على الإسلامي بوصفه ديناً وتراثاً فكرياً لهذه المجتمعات وإلى تخليص العقل الإسلامي من مسلمات القرون الوسطى التي مازال يعيد إنتاجها والتي تتجسد في الخلط بين البعد الأسطوري للخطاب القرآني والبعد التاريخي العقلي⁽²⁰⁾.

وتهدف الإسلاميات التطبيقية إلى إحداث قطيعة جذرية مع الدراسات التقليدية في الغرب "الاستشراق" التي نتصف بالرؤية السكونية، واستخدام المناهج الوضعية والتاريخية والفيلولوجية "الفقه- اللغة" التي تجاوزها التطور العلمي. وهذه الإسلاميات التطبيقية تهدف إلى قراءة ماضي الإسلام وحاضره انطلاقاً من خطابات المجتمعات الإسلامية والعربية وحاجاتها الحالية⁽²¹⁾.

3- قراءة النص القرآني :

إن تعامل أركون مع النص القرآني ينطق باعتباره جزءاً من التراث الذي يستلزم القراءة النقدية وإعادة كتابة تاريخه وفق محددات المشروع الذي يتبناه، بمعنى أن القرآن ليس أكثر من نص تشكل تاريخياً ضمن شروط معينة كغيره من

⁽¹⁹⁾ محمد ضريف: الحوار المتمدن، العدد 2546، 2009 .

⁽²⁰⁾ أركون: تاريخية الفكر العربي "الإسلامي"، ترجمة وتعليق. هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، ط2، 1996، ص55. وانظر أيضاً: عبد المجيد خليقي: الإسلاميات التطبيقية ومنها، العقل الإستطلاعي، ص111 .

⁽²¹⁾ أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص36 .

النصوص التي يحفل بها الموروث الفكري للحضارة الإسلامية، مثله في ذلك مثل الشعر الجاهلي والشعر العباسي، وهو ما يعنى نزع القداسة عنه باعتباره نصاً إلهياً له خصوصيته، من حيث إخضاعه للنقد التفكيكي والقراءة الحفرية عن طريق توظيف كل المناهج الممكنة من أجل فرض "قراءة تاريخية" عليه ومن ثم إخضاعه لمحك النقد التاريخي المقارن، وللتحليل اللسني التفكيكي. ويرى أن المراجعة النقدية للنص القرآني تتطلب أولاً إعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كلياً، أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول نقداً جذرياً، وهذا يتطلب منا الرجوع إلى كل الوثائق التاريخية التي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني. ويقول أننا نتطلع إلى مرجعات إجمالية للقراءات المختلفة بالمعنى اللغوي الحالي المتصلة بهذا النص منذ ظهوره، بحيث قراءة النص القرآني قراءة انتقادية وتأسيسية ذلك أننا لا نستطيع أن نتغافل عن القراءات السابقة بدون إن نكون قد كشفنا النقاب عن جميع دالاتها⁽²²⁾.

ويقدم الخطاب القرآني نفسه في نظر أركون كحادثة تغيير كل شئ قياساً إلى العقائد والعادات التي سارت قبله حيث زمن التراث العربي السابق وأثره الجهل والفوضى والظلام، ليقدم في مقابله التراث الإسلامي استناداً إلى النص الديني الذي بلور ملامحه. وإن اعتبرنا النص الديني جزءاً من التراث، فهذا يعنى أن قراءة النص الديني تتدرج داخل قراءة أعم من قراءة التراث⁽²³⁾.

ويتطرق أركون من خلال عرض لقراءة النص الديني إلى ما يسمى "تاريخية النص الديني". وذلك بناء على وضع النص الديني ضمن الإسلامي، فإنه في موازاة ذلك يضع صفة القداسة جانباً ليرز حقيقة التاريخة، وهو يدرك أنه ما أمكن ذلك إلا إذا قام بتفكيك المسلمات التي ينطوي عليها التفسير التقليدي للخطاب القرآني، لأن المسلمات اللاهوتية تؤدي إلى أسطرت القرآن برفع إلى

(22) أركون: الفكر العربي، ص 30-33 .

(23) أركون: الفكر الإسلامي: قراءة علمية: ص 19 .

التعالى المقدس، فتفقد صفتها التاريخية وعلاقتها بالظروف التاريخية التى ظهرت فيها. إن تعامل أركون مع النص القرآنى - وهو النص المؤسس للثقافة العربية الإسلامية، يقوم أساساً على إعادة النظر فى قداسته والكشف عن آليات تعالیه، من خلال البحث فى طبيعته اللغوية، إن ما يهم أركون ليس النص كوحى إلهى، وإنما يهمه الخطاب القرآنى المنزل وفق حركة عمودية مجسده فى لغة بشرية شفوية فى البداية، ثم مكتوبة بعد ذلك⁽²⁴⁾.

ويجب أن توضّح هنا أن أركون قد أولى اهتماماً خاصاً لقضية قراءة القرآن وللوسائل التى استخدمت فى توظيفه على امتداد التاريخ الإسلامى والعربى. ويشير إلى استخدام هذا النص فى الصراعات الاجتماعية والسياسة بحيث عمدت كل فئة اجتماعية- تاريخية إلى فهمه وتفسيره بما يخدم أهدافها ومصالحها، بل كانت تلجأ إلى الدفاع عن مواقفها عبر الاحتماء بعلم الدين وهيبته المقدسة التى كانت لا تناقش، فحولته إلى عقيدة خاصة انغلقت داخلها وأطلقت حكمها على سائر التأويلات فى خانة الضلال والكفر والانحراف. ويشدد أركون على ضرورة التوضع فى عصر القرآن والبيئة التى نشأ فيها لدى كل محاولة فى قراءته وتفسيره وتأويله، وهو أمر يتطلب قبل كل شئ الابتعاد عن إسقاطات الحاضر ونظرياته الأيديولوجية السائدة فيه. وينتقد أركون فى هذا المجال الوجهة التشريعية التى يصبح القرآن عندها معتزلاً إلى أسطورة وتالياً إلى إيديولوجيا. والهدف من قراءة النص القرآنى هو المساهمة فى تحرير المعرفة التاريخية من إطار القصة ومجرياتهما من أجل جعلها تتوصل إلى وظيفة الكشف عن الرهانات الحقيقية للتاريخية⁽²⁵⁾.

وفى هذا الإطار يسلط أركون النقد على اعتماد المفسرين العصريين فى تفسير القرآن على المفسرين القدامى، فى وقت يحتاج هذا النص إلى قراءة عصرية تستجيب للتطورات والتغيرات التى عرفها التاريخ العربى والإسلامى، أى بما يعنى

(24) أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى، ص 16.

(25) أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى، ص 174.

قراءة عصرية للقران، ويشير أركون إلى أن النص المكتوب "القران" مقروء من قبل جميع المسلمين من خلال بروتوكول الإيمان الذي لا يناقش ولا يجادل فيه، وهناك من وجهة نظره تفاسير أو وقراءات لاهوتية، فقهية، وصوفية، وحرفية وباطنية للقران، وهى تفاسير ناتجة عن التراث الفكري لكل مذهب من المذاهب الإسلامية ويلاحظ أن المفسرين المسلمين المعاصرين يعتمدون جميعاً، في طريقة تفسيرهم من خياراتهم العقائدية، على المفسرين القدامى، ولم يحاول واحد منهم أن يفكك تاريخياً وفلسفياً نظام البديهيّات المؤيدة من قرون عديدة بصفتها موقفاً دوغمائياً مقدساً⁽²⁶⁾.

4- الخيال الديني :

لقد احتل الخيال الديني موقعاً مهماً في مشروع أركون لنقد العقل الإسلامي، وركز أركون على الأثر الذي يتركه الخيال الديني على المستويات التاريخية، والسيولوجية، والنفسية، وتكمن الخطورة مما نشهده من استخدام الحركات الأصولية لهذا الخيال بوصفه أداة وقوة تتسم بالعقلانية كفيّلة بتجييش الجماهير، ويحدد أركون فهمه لموضوع الخيال والهدف من التركيز على أهميته بالقول عندما أقول الخيال فأني لا أريد أن أفرغ نموذج العقلانية المستخدمة في كل تراث ديني من أي وجهة نظر عقلانية، وإنما أريد بالأحرى إدخال مقولة أنثروبولوجية لكي أفسر كيف أن تصور الوقائع، وكل اللغات اللاحقة المستخدمة للدلالة على هذه الوقائع، و الخيال على طريقته ومن وجهة نظره هو ملكة من ملكات المعرفة، و الخيال يساهم في هذه الفعالية بصفته وعاء من الصور وقوة اجتماعية ضخمة تكمن مهمتها في إعادة تنشيط التطورات العقلية بصفتها حقائق رائعة، وقيماً لا تناقش، تكون الجماعة مستعدة لتقديم التضحية العظمى من أجلها، وعبر هذه العملية التاريخية والاجتماعية تغني الذاكرة ويمتحن الخيال الاجتماعي⁽²⁷⁾.

⁽²⁶⁾ أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 39.

⁽²⁷⁾ أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 29.

5- العلمنة :

يناقش "أركون" قضية العلمنة من زوايا مختلفة عما درجت عليه أيديولوجيات لم ترقى الطرح العلماني سوى قضية فصل الدين عن الدولة من جهة، أو في موقف سلبي من الدين نفسه، ولقد قدم أركون مقاربات منفتحة وبعيدة عن الأدلجة أو الاختزالية، وبين ووضح السلبيات التي حوتها وقدم بذلك إلى الفكر الإسلامي وجهة متوافقة من منطلق نقد العقل الإسلامي، وقابلة لأن تساهم في تحرر المجتمعات العربية والإسلامية إذا ما قيض لها التطبيق. ويحدد أركون فهمه للعلمنة بأنها موقف للروح وهي تناضل من أجل امتلاك الحقيقة أو التوصل إلى الحقيقة، والعلمنة هي شئ آخر بكثير من التقسيم القانوني للكفاءات بين الذرى المتعددة في المجتمع، إنها قبل كل شئ مسألة تخص المعرفة ومسؤولية الروح "أي الروح البشرية، الإنسان" هنا تكمن العلمنة وتفرض نفسها بشكل متساو وإجباري على الجميع⁽²⁸⁾.

وعلى امتداد أطروحاته حول العلمنة يصير أركون "على ربطها بقضية الحرية" وجعل المفهومين مترابطين، ويشدد على رفض تحول العلمنة إلى أيديولوجيا وظيفتها قبولية الفكر أو الحد من حريته، والعلمانية كما يراها أركون هي أحد تجليات الحداثة في مرحلتها المتقدمة، حيث يتميز النظام العلماني باحترام الفرد وحرية الضمير، وضمان الحرية الدينية لجميع المواطنين دون استثناء، إضافة إلى الاعتراف بالتعددية الدينية وحرية الاعتقاد. والعلمنة كذلك تمثل موقف للروح أمام مشكلة المعرفة، هل يحق للإنسان أن يعرف أسرار الكون والمجتمع أم لا يحق؟ ويخلص أركون من دراسته للعلمنة إلى بيان أنها وحدها هي التي تحرص على البعد الروحي الذي يحتاجه الإيمان، وهي بالتالي تضع هذا البعد في مكانه الصحيح، وتمنع المتاجرة السياسة واستغلاله لأهداف سياسية أو غير نزيهة⁽²⁹⁾.

(28) أركون: العلمنة والدين: الإسلام، المسيحية، الغرب، دار الساقى/ بيروت، ط3، 1996، ص 10 .

(29) أركون: العلمنة و الدين، ص 11 .

ولقد وجه أركون سهام النقد اللاذع إلى المتطرفين علمانياً أو ما يسمى "العلمانية الأصولية" هؤلاء الذين يعتقدون بانتهاء دور الدين بعد ما شهد العالم تطوراً علمياً استثنائياً أمن له الكشف عن الغيبيات. ويميز في هذا الصدد بين العلمانية التي طبقت في أوروبا وخصوصاً منها الفرنسية، والتي ترافقت مع نضال كبير ضد السلطة الكنسية وهيمنتها على العقل الغربي، وبين علمانيات أخرى عرفتها مجتمعات عربية أو غربية. ويتطرق أركون إلى التجربة العلمانية في تركيا، التي قادها مصطفى كمال أتاتورك في الربع الأول من القرن العشرين، ويعتبرها التجربة الوحيدة للعلمنة الجذرية في الإسلام، فهذه العلمنة اتخذت منحى معادياً للتقاليد السائدة، وسعت إلى إلغائها بشكل عنيف، وهي بذلك الموقف كانت موقفاً أيديولوجياً مغلقاً يشبه موقف رجال الدين والكنيسة في أوروبا. وسعت علمانية أتاتورك إلى الهيمنة على الدين، ووضعها تحت سلطتها، وهو أمر مناقض للمبدأ العلماني القائل بفصل المجال الديني عن المجال السياسي، وكذلك يمكن وصف العلمنة التركيبية بأنها نضالية أكثر منها منفتحة ومرنة، وهي بهذا المعنى خطيرة من الناحية العقلية والثقافية لأنها لا تأخذ في الاعتبار البعد الديني للمجتمع التركي، ولا التعددية العرقية، وهذا ما يفسر العودة للصحة الدينية في تركيا ووصول القوى الإسلامية فيها إلى السلطة⁽³⁰⁾.

6- الأصولية في فكر أركون :

تخترق الأصولية بما هي أيديولوجيا وممارسة كل كتابات أركون، فيلج إلى دواخلها ويحلل خطابها، ولا ينفصل نشوء وظهور الأصولية عن الكيفية التي يلجأ إليها الفقهاء في قراءة النص الديني. وتلجأ الأصولية الإسلامية إلى استخدام معظم المعجم الديني القديم بكل ما يحويه من طقوس ومبادئ دينية من أجل خلع المشروعية على نشاطاتها السياسية ومعارضتها للأنظمة القائمة، مما يعنى تحويل الدين إلى أيديولوجيا سياسية. وتستخدم الأصولية النص القرآني والحديث فتزعهما من

(30) أركون: العلمنة والدين، ص 25 .

سياقهما التاريخي وتعتمد اللجوء إلى الإسقاط على الواقع الراهن بما يخدم توجهاتها وأفكارها، ويقدم أركان قراءة مسببة لتعيين العوامل الداخلية والخارجية في نشأة الأصولية الإسلامية، بالنسبة للعوامل الداخلية يرى أركان وجوب أن نذكر أولاً التزايد الديمغرافي "السكاني" الهائل الذي حصل في وقت قصير جداً، ووسع بالتالي القاعدة السوسولوجية للأصوليين، وسبب تشكيل هذا الجيش الهائل من الأصوليين يعود إلى الطريقة التي استخدمت فيها وسائل الإعلام والمدرسة العامة من قبل الأنظمة العسكرية والتي لا تملك أي ثقافة ديمقراطية، كما ينبغي أن نذكر أيضاً اقتلاع الفلاحين والبدو من جذورهم وهجمتهم على المدن، فقد تفككت أعراقهم وثقافتهم التقليدية⁽³¹⁾.

أما العوامل الخارجية التي أدت إلى نشوء وظهور الأصولية، يرى أركان أن الحداثة الاقتصادية والتكنولوجية الغربية تمارس ضغطاً مستمراً على كل المجتمعات العربية والإسلامية التي لم يتح لها أن تساهم في تشكيل هذه الحداثة. وانجذلت هذه الأسباب بانحيار مشروع التحديث العربي، فتزايدت الأزمات، كل هذا جعل الأصولية الإسلامية تتقدم لملء الفراغ الذي تسبب فيه فشل سياسات الأنظمة، فقدم الإسلام السياسي نفسه بوصفه الحل المنقذ للأمة العربية والإسلامية، وقدم أفكاراً اختلط فيها الدين بالسياسة. ويرى أركان أن الأخطر في الممارسة الأصولية يكمن في استخدام النص الديني لتبرير عنفها المسلح والأعمال المتطرفة ذات الطابع الإرهابي في عملها. ولقد شكلت سورة "التوبة" وغيرها من الآيات المحرزة على القتل والعنف ملهماً لهذه الحركات في سلوكها⁽³²⁾.

ويعتمد الخطاب الأصولي على القراءة الحرفية الظاهرية لهذه الآيات الدالة على العنف وعلى وجوب إخضاع الأمم جميعاً إلى الإسلام. ويرفض الأصوليون

⁽³¹⁾ أركان: الفكر الأصولي واستحالة التأصل "نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة. هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط 1، 1999، ص 223-224.

⁽³²⁾ أركان: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص 29.

استخدام المنهج التاريخي الذي استخدمه أركون في قراءة مثل هذه الآيات. ويصر الأصوليون على قراءة للنص ترى أنه ككلمة واحدة لا اجتهد في النص الذي يصلح لكل زمان ومكان ولكل الأمم علي السواء وهي قضية مفصلية ومحورية في العقل الإسلامي، وإحدى العقبات الأساسية أمام قراءة منفتحة للنص تميز فيه بين ما هو صالح حقاً لكل زمان ومكان ومن قيم روحانية وإنسانية⁽³³⁾.

الخلاصة

في نهاية هذا العرض لمشروع أركون النقدي نستطيع القول أن أركون يعتبر أحد السابقين من بين أصحاب المشاريع العربية إلى قراءة التراث العربي قراءة حديثة ومنهجية، لكن المشروع الأركوني ونحن لسنا هنا في مجال تقييم له لم يوفق في إنتاج معرفي أصيل وحقيقي في مقارنة التراث عامة، ولكن مع ذلك ما يميز هذا المشروع الأركوني أنه في الوقت الذي أعلن فيه أنه يقوم بتقد التراث الإسلامي وخاصة المدونة الضخمة في تفسير القرآن، وكذلك النظر للنص القرآني من منظور تاريخي، مع ذلك فإن مشروعه لم يبارح الأرض الكلاسيكية في التفسير والتحليل من حيث الجوهر، وظل حبيساً لقداسة وثوابت الأصول مع غطاء حديث من المناهج والاستراتيجيات العلمية الرائجة في فرنسا. الشيء الملفت في مشروع أركون نفسه، أنه قام بتوظيف ذلك المناهج الفكرية والعلمية الفرنسية خاصة، والتي تحمل مواصفات ومبادئ هي على النقيض من التفكير الأنواري والعقلاني الذي قامت عليه النهضة الأوروبية الحديثة.

ومع ذلك حتى لو فشل مشروع أركون أن يقدم أسس جديدة لنقد التراث، فإنه يكفيه أنها محاولة جادة لإعادة النظر في الموروث الثقافي العربي والإسلامي .

(33) المرجع السابق : ص 31 .